العواطف الشريفة

رواية للخوري اسطفان البشعلاني (ملخَّصة من الافرنسيَّة)

١

دامت الحرب بين امراء المانية المصلحين وبين امبراطورها وامرائها الكاثوليك من سنة ١٦١٨ الى ١٦٤٨ فعُرفت بحرب الثلاثين سنة وهي تنقسم الى اربعة ادوار: ١ً دور الاشراف وهو قتال فردريك الخامس منتخب باقارية والامبراطور فردينان الثاني. ٢ً الدور الدنمركي المشهور بتدخل كرستيان السادس ملك الدنمرك في شؤون المانيا. ٣ً الدور الاسوجي وقد عُرف بانتصارات غوستاف ادولف ملك اسوج الذي قُتل في أتزن. ٤ً الدور الافرنسي وفيه نرى ريشليو يساعد المصلحين قصد الحَطّ من شان النمسة الى ان حملت انتصارات فرنسة اخيراً الامبراطور فردينان الثالث على توقيع معاهدة وستفالية

فالى هذا الدور الاخير ندعو القارئ الكريم ليتبعنا الى جهة سبسارت من بلاد المانيا في اواخر سنة ١٦٤٤ في ليلة ارخى الظلام فيها سدولهُ واختفت نجومها وقرس بردها فاستحجر التراب وجمدت الاشجار والمياه في الانهار. وكان الجليد يتكسَّر فيُسمع لهُ انين كأنهُ شكوى الحزين وانضمَّ الى هذا الانين صوت العاصفة التي كانت تهبُّ من بعيد على الجبال

وكان فارسان غساويَّان ممتطيان جوادين كريمين يسيران في أجمة كثيفة وهما يبحثان عن الطريق المثلى وقد التجنا بدثارين طويلين يجللان الجوادين. وكان احدهما فتى يدلُّ وجههُ على الحدَّة لابساً بزَّة ملازم وكل ظواهره تنبئ بانهُ فارس مجرَّب. اما الآخر فكان كهلاً قد ارتسمت في وجههِ ملامح الغم الشديد واللطف وارخى ضفائر شعرهِ حول جبهتهِ المجعَّدة واطرق رأسهُ كأنهُ يحتمل واضياً متاعب سيرهِ في ذلك الليل

جودوا بصفح على من خان عهدكمُ فالصفحُ شيمتُكمُ من قبلُ والكرمُ
فلو درى الناسُ عُقبى البغي لاجتنبوا كيدَ الطُّغاةِ فلا يَطغون ان حكموا
تَفقهوا يا أُلى الاحكامِ واعتبروا ولا تجوروا فانَّ اللهَ ينتقمُ

البهيم ويشجع جواده الذي كان يتعثر بجذور الاشجار المكسورة. لا يشكو برداً ولا ظلاماً ولا تيهاً

وللحال صاح الملازم الفتى : متى ينجلي هذا الليل الطويل. فقد اجتمعت فيه الظلمة والبرد والخوف من الذئاب ومن عدو طارق

قال الآخر : اهذا هو البأس الذي امتاز به ابناء جرمانية الاشدّاء وما الشكوى يا فيليب الّا لتزيد المحن شدةً فاصبر على الشدّة وضع نفسك فوق المصاعب

فقال الملازم : أرَ تظنُّني يا مولاي الامير الاي أبلغُ ما بلغتهُ انت من العزيمة والصبر على الشدّة فانت اصلب عوداً من شجر هذا الغاب ولقد عجبتُ من ثباتك في مواقف الحروب العديدة التي شهدتها. كنت صبوراً في القتال ثبتاً في الهزيمة رصيناً في الفوز كبيراً عند تقلبات الأيام يحترمك الجيش ويحبك الامبراطور ويهابك العدو. على أنني المن هذه الحرب التي جرّت على البلاد والعباد انواع البلاء والفقر

قال الامير الاي : لا تمادَ يا فيليب في السير مع تيّار الهواجس والفكر فنحن ندافع عن واجب مقدّس فاذا وخطك الشيب ذهبتْ منك هذه الحدّة او يليق بنا ان نترك الدفاع عن دين تلقّنا شواعرهُ عن والدين فارقونا ولم يفارقنا ذكرهم ؟

فأثّر هذا الكلام في قلب الشاب وذكر بعد نسيانه ايام الصبا فقال : نعم لقد علّمتني والدتي الصالحة محبّة الله وتكريم الدين. ان نفسها وقت الصلاة كانت ترتفع مع نفوس اولادها الى الله عزَّ وجلَّ يجتمعي الروع. آه لقد ماتت والدتي واختي وقُتل والدي في بعض الحروب !

ثم صمت فيليب وتزاحمت الافكار في مخيلته. اما الامير الاي الذي كان من قبل رابط الجأش فاخذت تتقسّمهُ الهواجس وتتبدد من اعماق الفؤاد فسمعهُ الشاب فصاح : عفواً يا مولاي الاميرال بل يا ابي الحنون لقد احزنتُك على غير قصد وحرّكت ساكن اشجانك

فاجاب بصوت منكسر : « نعم لقد اثار حديثك فيَّ مرارة نفس كتمتُها وذكّرني بشدائدي واحدةً فواحدة لقد صبرتُ وتأسيت بغيري ممّن أصيب باعزّائه الّا ان ذلك لا يشفي جراح أبٍ وزوج تعيس . لم اكن وحيداً يا فيليب من قبل فقد كنت مقيماً في دوقية باد أنعم بمسرّات العائلة والحبّ الطاهر فهناك امرأة شريفة عرّفتني ما في الحيرة

من الغبطة وعرفني فقدها ما يفعل الحزن في القلب

« ولقد رزقني الله ولدين قرت بهما عيني اذ جمع فيهما كمالات والدتهما ولكن ما عتم ان أشهر الحرب ورأيت الوطن يدعو ابناءه وشعرت زوجتي اليونورا بحرج الموقف فأخفت عواطفها وكانت تسبق الى تشجيعي بقولها : ان الله والوطن يدعوانك فلا تتوقف عن تلبية الدعوة . وقد تمكنت بعد سنتين من الرجوع الى اهلي لاعانتهم استعدادًا لفراق مر . لله ما اجمل ما كانت صورتها عندما ودعتها آخر مرة انني اراها دائمًا في احلامي تبتسم وذكرها الجميل اثمن كنز اصونه . وقد خطف الموت مني ولدي غستون فعظم المصاب عليَّ ولكني صبرت وانصرفت بكليتي الى ابنتي الوحيدة . . .

« انني شريف الاصل غير ان والديَّ لم يبقيا لي سوى شعار اسرتهما . وصلت الى الجندية من صباي واقترنت في الخامسة والعشرين من عمري بامرأة مثلي لا مال لها غير انها كانت قنوعة مقتصدة تعتبر سعادة العائلة احسن سعادة . وكانت مجرية الاصل فلما مرضت خيل لي ان رجوعها الى وطنها يعيد اليها العافية بعد ما عجز عنها نطس الاطباء . فعرضت ذلك عليها فتوردت وجنتاها وقالت : اني لم اترك بلادي الا لاعيش معك يا كرستيان . . . أرغب العود الى بلادي ولكني ضعيفة الآن فنؤجل ذلك الى وقت آخر . . . وقد كانت المسكينة تبسم للحياة والموت يعانقها

« وما لبثت ان نادتني الحرب ولم يسعني الوقوف دقيقة لئلا أحسب جبانًا ولان حمل السلاح مهنتي التي تعيش منها عائلتي . اواه يا فيليب عندما ودعتني اليونورا وضمت ولدي غستون الى صدري كنت اتمنى الموت في تلك الساعة . ولم يمض على سفري شهران حتى قضت زوجتي وقضى بعدها غستون باسابيع قليلة ومن هذا تعرف كم قاسيت وليلًا عاجاني الشيب . انني سرت حيثما قادتني التعرف الذي منعني عن تلبية نداء الحنو . اما ابنتي ماتيلدا فابن مانت ؟ ذلك ما يجهله هذا الاب التعيس . وقد كنت لما علمت بموت زوجتي قبل موقعة لُتزن دعوت الموت في ساحة يلقى فيها كثير من الابطال الشبان موتًا مجيدًا فلم تصبني رصاصة ولم يمنني حسام . قضي عليَّ بان اعيش . . . فاعيش لكي اتعذب

« وما كادت الحرب تضع اوزارها حتى أنبئت بفاجعة مؤلمة وتلك انني كنت وكلت امر ابنتي ولها من العمر تسع سنوات الى امرأة فاضلة كانت صديقة لوالدتها

فقبلت الوكالة وطرقت ابنتي بعقود الحنان غير انهُ بعد زمن قليل نزل بالقرية التي كان فيها منزلنا فرقة من الجنود القساة وذهب كل شيء طعاماً للسيف والنار وهلك خلق كثير ونجا الباقون هرباً . وخُطفت ماتيلدا ولم نتمكَّن من الوقوف لها على اثر مع ما بذلنا من التفتيش . ولزيادة البلوى أُصبتُ بعد ذلك بجرح تركني في ساحة القتال بين حي وميت وبعد مدَّة عدتُ الى الحياة بالعناية واستأنفتُ البحث عن ابنتي فذهب تعبي ادراج الرياح وكان يعذبني خوفي من ان تكون ماتيلدا ذهبت ضحيَّة التعصُّب بصفة كونها ابنة جندي كاثوليكي . وماذا يحلّ بي اذا كانت ابنتي أُبعدت الى مكان تعيش فيه عيشة الرذيلة ! فكان هذا الفكر يمزّق احشائي تمزيقاً وافضّل ان تكون ماتت الف مرَّة ولا يلحقها هذا العار »

وهنا انحنى الامير الاي على عنق جواده وتمادى في البكاء والنوح

فاخذ فيليب يشجعهُ ويعزيهِ على الصبر فقال الامير الاي : « لقد اصبتَ فما تنفع الشكوى فالامثل بي ان اخفي حزني واجعل صدري مركزاً حصيناً انقش عليهِ اسماء احبَّائي الثلاثة . ولا غروَ انك كنت اوَّل من عرف سرّ بلواي وحزني بعد ان كتمتهُ ثماني عشر سنة »

قال هذا ومدَّ يدهُ الى فيليب فاخذها الملتزم وقبَّلها ونثر عليها لؤلؤة من الدمع

ثم استطرد الامير الاي الكلام قال : « آني غنيّ الآن ويا ليتني كنتُ فقيراً مثل يوم كنت امالك فيهِ مع أُسرتي ذلك الكنز الذي اوتيتهُ من السماء . وكم من رجل يسحب مثلي ذيول الغنى والجاه كالاسير الذي يرسف بقيودهِ الثقيلة . وكلَّما كنت احاول تخفيف ويلات التعساء بتجديد ابتسامة على شفةٍ تراءت لي صورة ابنتي وهي صفراء متوجعة فلماذا ارى تلك الروح التي شاء الله ان ينقلها اليهِ والى اليونورا مرفرفة حولي »

ثم سكت وسكتت الريح ايضاً واخذت تظهر الطريق لعيني المسافرَين بنور الفجر ونزلا الى الوادي واذ لم يعرفا الطريق قصدا محلّ اجتماع الناس ثم طرق اذنيهما صوت جرس يُقرع « التبشير » في الكنيسة القريبة فاراد الامير الاي ان يدخل بيت الله استرجاعاً لقواهُ التي فقدها في تلك الساعة بتلك الذكرى المؤلمة فسأم جوادهُ الى الشاب ودخل حتى اذا صار عند المذبح سجد واستغرق في التأمل

٢

ربط فيليب الجوادين بجديد المقبرة وتبع الامير الاي فسجد مفكرًا بوالدته ونظر نظرة الشفقة والاحترام الى ذلك الرجل الذي فتح لهُ قلبهُ . ولمَّا هم الامير الاي بالخروج اذا بفتاة تحمل طفلًا وراء كاهن وقور فنظر هذا الى الامير الاي واسرَّ الى الفتاة كلماتٍ فأصغت اليهِ الفتاة ثم دنت من الامير الاي وقالت بأدب: قد كان حضرة الاب رضي ان يكون عرَّابًا لهذا الطفل الفقير الَّا انَّهُ اذ رآك هنا رغب الى جنابك ان تتنازل وتقوم مقامهُ

قال: لا ادري ايتها الفتاة ما الذي حمل حضرة كاهنكِ على هذا الطلب

قالت: لان الطفل ابن جندي وبزَّتك تدلُّ على مقام رفيع في الجنديَّة فانت اذًا أليق لحظّ الولد من كاهننا الوقور

فتأثَّر الامير الاي لهذا الايضاح ورضي بان يكون عرابًا للطفل . ثم سألتهُ الفتاة: وماذا تريد ان تسميه ؟

قال: لم افتكر بهذا لكن فلنسمِّهِ فيليب . . . ونظر الى رفيقهِ

قالت: امَّا والدته فقالت لي: اطلبي يا لويزا الى المحسن الذي يكون عرابًا لابني ان يسميهُ كرستيان

فقال متعجبًا: «كرستيان ؟ ما هذا الاتفاق انا ايضًا أُدعى بهذا الاسم» . وتعلَّق قلب الامير الاي منذ ذاك بمن صار لهُ ابنًا روحيًّا فكشف القناع عن وجههِ فرأى وجهًا غاية في الجمال ثم دنا من الكاهن فحيَّاهُ باحترام وسألهُ بعض معلومات عن والدَي الولد

فقال: انَّ اباهُ يدعى ريشار وهو دافرني سمعتُ انَّهُ جندي باسل نبيه وقد كان خليقًا بالمناصب الرفيعة لولا فقره وكونهُ اجنبيًّا وكثيرًا ما رأيت ام الولد مفكرة متألمة ولمَّا احتاجت الى مساعدتي الروحيَّة رأيت منها نفسًا سامية غاية في العفاف وهي صابرة على ما نالها من البلاء فعسى ان تكون ولادة هذا الطفل طالع سعدٍ لهذه الشهيدة المسكينة

فشكر الامير الكاهن وتقدَّم الى جرن العماد واعطى الولد اسمهُ وقبل ان يستأنف سفرهُ وضع قبلةً ابويَّة على جبهة كرستيان الصغير ثم اخرج من جيبهِ كيسًا من القطيفة الحمراء مطرَّزًا بالذهب وسلَّمهُ الى لويزا قائلًا: هوذا نفقات العماد

وسألهُ الكاهن عمَّا اذا كان يرّ به ثانيةً فاجاب: بعد ثلاثة اسابيع في مثل هذه الساعة اكون هنا ان شاء الله فان كان لولدي كرستيان حاجة امكنك ان تقولها لي ايها الاب بعد رجوعي

قال: ليباركك الله ويَصُنْ هذه النفس الكريمة فترى من عائلتك كل سعادة انت اهل لها

فصافح الامير الاي الكاهن وشدَّ يدَهُ قائلًا: « لا يمكن ان يُجاب دعاؤك يا ابتِ لان عائلتي في السماء ولا حظَّ لي... » وغطَّى وجههُ بمنديله وانصرف مع فيليب والكاهنُ ولويزا يشيعانهما حتى اذا غابا عن العيان دنا الكاهن من المذبح يصلّي لاجل ذلك الشريف واقَّت لويزا الولد باعتناء وسارت تريد منزل الجندي المسكين ولا شيْ يكدّرها سوى عبارة الامير الاي الاخيرة. فقد دعي الولد كرستيان بحسب رغبة والدتهِ وكان عرَّابهُ غنيًّا قويًّا والكيس المطرَّز يحتوي كميَّة من الذهب كل ذلك ممَّا يخفّف بلوى ريشار وزوجتهِ اللذين احبَّتهما محبَّة شديدة

فدخلت الفتاة ووجهها يطفح بشرًا الى حيث كانت امرأةٌ في السادسة والعشرين من عمرها قد اتَّسمت في وجهها علائم القلق والحزن وعلاها الاصفرار ما لم يُبقِ على شيْ من جمال ذلك الوجه. وكانت راقدة على فراش من القش فيلوح من كل احوالها ما يحمل على الشفقة ويذيبْ بما بانت اليهِ من الشقاء. اما الغرفة فكانت حقيرة تحتاج الى الضروري والناظر اليها يدرك كيف ان العناية قد تخفي الشقاء تحتَ ستار النظافة والترتيب. ثم صاحت الفتاة: ها قد رجعتُ اليك يا سيدتي ببشائر سارَّة فلا تحزني. ان كنتِ فقدت بنانك الثلاث اطفالًا فابنك هذا يتمتع بصحة عجيبة وسوف يعيش ان شاء الله

قالت المرأة بصوت ضعيف لكنَّهُ حلو: اشكر لك يا ابنتي هذه الكلمات المعزّية

قالت: وان ابنك سُمّي كرستيان

فضمَّت المرأة يديها وهتفت: كرستيان! يا لهُ من اسم كريم محبوب

قالت: وان عرابهُ احد الجنود العظام على كتفيهِ رمانتان من ذهب وصدرهُ مرصَّع بالاوسمة وهو ابيض الشعر ملاحهُ كملاحكِ

قالت المرأة: لا ريب في انهُ متقدّم في الجنديّة ولو كان ابي حيًّا لكان مثلهُ يسمات الابطال لانهُ كان بطلًا والآن فان نفسي تحدّثني بشيءٍ عنهُ

قالت لويزا: وهذا العرّاب الكريم اذ علم بانكم لستم اغنياء اعطاني نفقات العماد فتوردت وجنات المرأة خجلًا وقالت: ولماذا قبلتِ يا ابنتي إحساناً

قالت: اه! ياسيدتي لو سمعكِ الرجل لحزن جدًّا او تظنين ذلك احساناً فلقد دنا مني وضمَّ كرستيان الى صدرهِ واعطاني النكيس قائلًا: « هذا الفلوني ». وطرحتُ النكيس بين يدي المريضة ولمَّا رأت ما فيهِ من الذهب هتفت: « اني اسأت فيما قلتهُ لان صاحب هذه العطيَّة ابن نعمة وانا فقيرة يا لويزا ومنذ اسابيع لم يقبض ريشار معاشهُ وماذا كان اصابنا لولا هذه العطيَّة ». ثم ضمَّت ولدها الذي ابتدأت السعادة معهُ وقبل ان تلفّ النكيس رتصونهُ ارادت التمتع برؤية تطريزهِ واذا بها صاحت صيحة التعجُّب « اني! ابي! » وسقطت لا تعي على وسادتها فاسرعت الفتاة الى معالجتها حتى افاقت من غشيتها ونظرت الى النكيس باكية وقالت متمتمةً للويزا التي لم تفهم شيئًا مما جرى: «انظري يا ابنتي الى هذا التطريز فانهُ شعار أسرة والدي وهو يمثل سلاحهُ وكنت اظنهُ من سنين عديدة قد مات. فالزيادة عذابي علمتُ الآن بانهُ حي. فاين هو واين سار لاتبعهُ؟ آه! آه! اني لن اراهُ الى الابد ». فتبسَّمت لويزا تبسُّماً ملائكيًا وقالت: « بعد ثلاثة اسابيع تشاهدين والدك كما وعد الكاهن. اه! لقد اصبتُ اذ قلت بان ملامحه كملامحك »

وكانت ماتيلدا تتقلَّب بين الخوف والوجاء وهي لا تصدّق بانها ترى والدها ثم تمالكت واخذت تسأل الفتاة اسئلة كثيرة بيَّنت لها دون شك ان العرّاب هو ابوها. وكانت تنتظر رجوع زوجها ريشار حتى اذا كان المساء بشرتها لويزا بقدومهِ ثم دخل وكان في الثلاثين من عمرهِ تلوح عليهِ سيماء اللطف يرتدي بثوب اوناشي قدنا من الفراش وهتف بصوت يذوب رقَّةً: لقد اسرعتُ يا عزيزتي لاراكِ واعانق مولودنا الصغير وابشرك بان سفيرًا من قبل الامبراطور اتى بنفسهِ لينقذنا المعاش المتأخر فهذه النقود لك يا ماتيلدا وقد وددتُ لو رأيتِ هذا الرجل الفاضل يشجعنا ولقد شاقني منظرهُ فكان يشبهك يحق الشبه

فصاحت المرأة وقد القت نفسها على ذراعي زوجها : ان هذا الذي أعجبتَ به يا ريشار هو ابي . .

— فما تقولين ؟

قالت : « وهو عرّاب ولدنا كرستيان الصغير وهوذا كيس منهُ عليهِ شعارهُ غير ان هناءنا لم يتمّ اذ لم أرهُ وهو يجهل كوني موجودة » . ثم قصّت عليهِ كل ما حدث فكان يضمّ تارةً زوجته وتارة ولدهُ ويقول : لقد قاسى كثيرًا لاجلك ولكن الحمد لله لقد زالت أيام النحس !

ثم رأت ماتيلدا زوجها قد تغيّر وجههُ واراد الابتعاد عنها اخفاء لعواطفهِ فلحظت اضطرابهُ فسألت عن سبب تألمهِ فلم يستطع الّا ان يصرّح لها بقولهِ : انك تلاقين والدك بعد فراق مرّ غير انّهُ اذا رآك فقيرة مجهولة مريضة وهو غني مشهور قوي انكرك ولعن الحظّ الذي جعل صلةً بينك وبيني . بل انكِ انتِ اذا رأيت نفسك محفوفة بمجالي العظمة واسباب النعمة هل تعودين تعترفين برفيقك الجندي المُعدم الذي لا يكاد يقوم بمعاشك حتى بثمن دمهِ ؟

فاصفرّ وجه ماتيلدا لكلام زوجها وكانت تعلم رقّة شعاره فادركت حالًا ما يجول في صدرهِ فاخذت يديهِ وقالت علنًا : ان ابي ذو نفس سامية فهو يباركك ويدعوك ابنًا لهُ . ولو فرضنا ان شعارهُ تغيّرت وانكرت علاقتي معك افيسعني ان انساك . اتعتقد ان الثروة تفرق بينك وبين زوجتك فلا تجعل هذا الريب يجرح قلبي . ولو كان اجتماعي بوالدي الذي اشتاقهُ يحول بيني وبينك فاقسم لك بانني انكر حقوقي البنوّية محافظةً على الحقوق الزوجيّة والأمّية

فاخذ ريشار يدي امرأته وضمّهما الى صدرهِ ودموع الفرح والشكر تترقرق في عينيهِ وقال : ماتيلدا انك كنت دائمًا في عينيّ اكمل مخلوقات الله واليوم صرتُ احسبكِ حقيقةً كملاك بصورة انسان

٣

مضت ثلاثة اسابيع والكاهن ينتظر رجوع الامير الاي وبعد انتظار ساعة في الكنيسة اذا بهِ قد اقبل فانحنى امامهُ الكاهن وطلب اليهِ ان يشرّف منزلهُ فلبّى الامير الاي الى اشارتهِ ومضى معه وبعد ان استقرّ بهما المقام قال الكاهن : « تعذرني يا مولاي

اذا التيتُ عليك بعض اسئلة ربما خفيتْ اهميتها عليك» . فاحنى الامير الاي راسه علامة القبول واستطرد الكاهنُ قائلًا : اريد اعرف هل الشعار المرسوم على الكيس الذي اهديتهُ لفليونك هو شعارك

— لا شك بذلك

— او هل لك عائلة ؟

— كان لي رفيقة مُحبَّة واولاد ظرفاء وكلهم خُطفوا مني

— بالموت ؟

قال الامير آلاي : حبَّذا لو خطف الموت الجميع فقد كان لي ابنة بقيت حيَّة بعد امها واخيها خطفتها يد قاسية وعذَّبوا البنت بما ارادوا ان يعذّبوا الاب

فسألهُ الكاهن : واذا كان الذين خطفوا ابنتك ابقوا على حياتها ؟

فُبهت الامير الاي وتغرَّس بالكاهن وقال : اني افضّل يا ابتِ بان تكون ابنتي ذهبت شهيدة على ان تحيا حياة العار . ولو فرضنا انهم ابقوا على حياتها وآدابها الاولى التي وضعتها مع الحليب ولم ينزعوا من قلبها الطهارة التي هي فخر المرأة لبقيتُ في ريب مخيف من جهتها . تبارك الله في احكامه ويا ليت عظام ماتيلدا ترتاح في زاوية من الارض ابلُّها بالدموع وارشُّها بالزهور !

فتمزَّق قلب الكاهن لهذا المشهد المؤثر وجال الدمع في عينيه وقال : اني لاعجب من عواطفك الشريفة ايها الامير فقليل هم الذين يخضعون مثلك لاحكام العناية الالهيَّة واقلّ منهم من يضحون من راحتهم في سبيل الشرف والفضيلة والآن فاسمح لي بان اسألك : اذا رُدَّت اليك ابنتك وهي مزينة بالفضائل التي تلقَّنتها اولًا فهل يزول شكُّك ؟

فلم يفهم الامير الاي هذه الالغاز وكان ينظر الى الكاهن كمن أُصيب في عقلهِ لكنَّهُ تغلَّب على هواجسهِ وعزا هذه الملاحظة لسبب بعيد عن خاطرهِ فقال : اني احترم يا ابتِ الداعيَ الحامل لك على هذه الاسئلة التي تؤلمني وان كنتُ لا افهمها واجيبك بانني اذا رأيت ابنتي المحبوبة على الحالة التي وصفتَها فلا ريب يشعر قلبي بفرح لا يوصف ولكن من يؤكد بانها خرجت ظافرة من محيطٍ كالهُ اثمٌ ؟

قال : يؤكد لك ذلك سيرتها الصالحة وحياتها المقدَّسة وقد حان لي ان اكشف

القناع وابشرك بان ابنتك حيّة وقد استحقّت اكليل الاستشهاد الذي ذكرتهُ لي وهي على الارض فبلاؤها وجهادها وثباتها في الصلاح وقناعتها وتواضعها كل ذلك يجعلها مثال الفضيلة والشرف . ان ذكرك لم يفارقها دقيقة مدّة ثماني عشر سنة وقد قاست مع زوجها مشقّات الحياة وحبّهما ثابت الّا ان الله عزى قلبها الكسير بعد ان فقدت ثلاث بنات بمولود جديد عمّدتهُ منذ ثلاثة اسابيع وصرتَ انت عرّابهُ فسمّيتهُ انت كرستيان

وكان الامير الاي الذي لم يحن جبيناً في الحروب جاثيًا امام الكاهن وشفتاهُ ترتجفان ووجهه ممتقع وذراعاه مبسوطتان . فهتف وهو لا يكاد يعي « اين هي ؟ اين ابنتي ؟ يجب ان اراها او امرت » . فتقدّم الكاهن وفتح بابًا مزدوجًا في الحائط فظهر من ورائهِ امرأة جاثية على ذراعيها طفل وخلفها جنديّ شابّ مطرقٌ عليهِ سمات الاضطراب فصاح الامير الاي : « ماتيلدا يا ماتيلدا أأنت هي يا ابنتي ؟ » وترامى الاب والابنة على بعضهما وبعد معانقة طويلة وقبلات ودموع نهضت ماتيلدا واسكت زوجها بعزّة ونبالة قائلةً : هوذا يا ابي زوجي المحبوب ريشار الذي كان يخلّصني وملاكي وحارسي وهو جدير بمحبّتك ورضاك

فتح الامير الاي ذراعيهِ وقال : هلمّ يا ابني ريشار فقد صار لي منذ الآن ثلاثة بنين . . . فشكرًا لك يا رب على كل هذه النعم !

وكانت ماتيلدا بحاجة الى الراحة فالحّ الكاهن على الامير الاي وعلى ابنتهِ وزوجها بان يقيموا في بيتهِ ريثما تصح ماتيلدا من ضعفها فشكروا فضلهُ وسكنوا في جوارهِ

وبعد ان ملكت ماتيلدا تمام العافية بعد أيام اخذت تقصّ على والدها حديثها اذ كان ريشار في مهنتهِ العسكريّة والكاهن في وظيفتهِ الرعائيّة ولويزا منشغلة بكرستيان الصغير قالت : « انني خطفت قسرًا من بيت حارستي يوم نهب الدغركيّون القرية التي كنّا فيها وحملني جندي منهم يدعى أسوالد على جواد لهُ الى كوخ امرأة فقيرة اعتنت بي فبكيتُ ودعوتك وما من مجيب ونفرتُ اوّلًا من الجندي رغمًا عن عنايتهِ بي ثم عدتُ فسألتهُ ان يرجعني الى مكاني فاجابني بان لا سبيل الى ذلك قائلًا : « لان ابالك مات في الحرب وحارستك قضت خوفًا وهلعًا وقد كنت اريد ارجاعك الى ابيك وان كان عدوًّا لنا ولم يكن خطفُك الّا انتقامًا منهُ » . ولمّا وضعت الحرب اوزارها حملني على جواد لهُ الى بلادهِ وكنت اذ ذاك في العاشرة من عمري ولمّا وصل وجد امرأتهُ قد ماتت فحزن

جداً ولكنهُ تعزّى بي وتبنّاني اذ لم يكن لهُ ولد

« ولا اقدر اصف لك ما رأيتهُ من مروّة أسوالد ومحبتهُ فانهُ كان بعد تركهِ الجندية يشتغل في معمل لكي يعولني حتى مرض ومات بعد ان اوصى بي شقيقةً له اخذتني الى بيتها ولاطفتني اوّلاً لكنّها تغيّرت بعد ذلك واخذت تعذبني عذاب الشهداء وكان لها ولد وحيد يدعى ريشار رقّ لحالي ولاطفني مخفّفاً احزاني وعذابي . وفيما كنت احنُّ شوقاً الى الوطن مرضت والدة ريشار سنة كاملة كنت اخدمها اصدق الخدمة حتى تعجّبت وطلبت مني الصفح عن اساءتها اليَّ

« اخيراً ماتت وخرجتُ من بيتها وعزمتُ على الخدمة والاستطاء لاحصل معاشي فعرض عليَّ ريشار مساعدته بعد ان عرف قصّتي واخيراً طلب اليَّ ان اقترن به والحياء والادب يمنعانهِ عن ذلك زماناً . فلمّا رأيت مروّته وشرف عواطفهِ واخلاصهُ وضعت يدي بيدهِ واتخذتهُ لي رجلاً »

واستأنفت ماتيلدا حديثها قالت : « وبعد زواجنا باع ريشار ما يملكه لاجل نفقات الطريق فلمّا وصلنا الى هذه الناحية انخرط في سلك الجندية وعانى بثمن دمهِ وجُرح في الحرب مرارًا واحتمل عذاب الجندية بلا شكوى »

ثم سألت والدها عمّا حمل اسوالد على ان يخبرها بموتهِ فقال : « انني بعدما خُطفت جرحت جرحاً مميتاً وشاع في الجيش انني متُّ »

*

بعد هذا الحديث بخمس سنوات اي سنة ١٦٤٩ كان الامير الاي ساكناً قصراً فخيماً في مقاطعة باد وقد اعدَّ مائدة جلس اليها ومعه ابنتهُ ماتيلدا وحفيدهُ كرستيان الصغير والى جانبهِ لويزا الاميرة ثم دخل رفيقه القديم فيليب الذي صار اميرًا الاياً وصهره ريشار الباسل الذي ارتقى في الجندية الى رتبة بيكباشي . ودخل بعدهما الكاهن الغيور وهنّأ الجمهور على ما رزقهم الله من السعادة فقال : بارك الله بكم يا اعزائي وبيوم عُقد فيهِ الصلح واستتبَّ الامن وعاد السلام الى العيال ذلك اليوم الذي لا يوازيهِ الّا يوم قدّمتُ ماتيلدا وزوجها للاميرال النبيل « صاحب العواطف الشريفة » . فليحي الامير ! فليحيَ كل اهل الفضل والمروّة !